المطلب الثاني: الحقوق والحريات في الحضارة الإسلامية:

لقد بزغ فجر الحضارة الإسلامية منذ أن نزل الوحي الإلهي على خاتم الأنبياء و المرسلين ρ و ذلك في القرن السابع للميلاد , حيث جاء التشريع الرباني منسجما مع الفطرة الإنسانية , شاملا لكل مناحي الحياة ، موازنا بين الحقوق و الواجبات ، و هذا ما جعل النظام الإسلامي يحدث انقلابا جذريا في حياة البشرية ، و شاع تطبيقه في أغلب مناطق المعمورة في فترة وجيزة ، و فيما يلي نتطرق إلى مراحل هذا النظام بدءا بتوضيح حالة العرب قبل ظهور الإسلام ثم الحديث عن مبادئ الحقوق و الحريات في الوحي الكريم ثم الكلام عن بعض تطبيقات الحقوق و الحريات في الحضارة الإسلامية.

الفرع الأول : حالة العرب قبل ظهور الإسلام:

لقد صور جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حالة العرب قبل مجيء الإسلام، حيث كانت تموج بالشهوات و المعاصي و حب الرفعة و السيادة ، و كان الولاء للقبيلة و رغم ذلك كانت فيهم الكثير من الخصال الحميدة التي توحي بفطرتهم السليمة كإغاثة الملهوف و الكرم و الإباء و العفة ،غير أن هذه المعاني النبيلة تتحول أحيانا إلى هضم الحقوق و الحريات حيث تجدهم ينصرون القريب الظالم بدافع الولاء للنسل ، و يقتلون البنات بدافع الشرف و العفة ،و يتلفون الأموال بدافع الجود و الكرم.غير أن هذه التقاليد المتوارثة حالت بينهم و بين الانخراط في حضارات عصرهم فقد تجنبوا ترف و انحلال الفرس و تسلط و طغيان الروم و الجدل و الفلسفة و أساطير اليونان ، حيث كانت طبائعهم أشبه بالمادة الخام التي لم تنصهر بعد في أي بوتقة محولة .مما جعلهم مؤهلين لتلقي الرسالة السماوية الخاتمة.

الفرع الثاني: إعلان الحقوق و الحريات في الرسالة المحمدية:

لقد جاء الإسلام بدعوة الأنبياء و المرسلين من قبل , ألا و هي إلغاء الأرباب من دون الله, و تحرير البشرية من تأله الإنسان على الإنسان , يشرع له و يتصرف فيه كما يشاء , فالدين الحق هو حركة تحرر و خلاص و رحمة و مساواة و هذه المفردات هي روح الحقوق الإنسانية .

كما أن حماية إنسانية الإنسان هو مقصد الشريعة و نجاتها , ذلك إنما الشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد في معاشهم و معادهم , و أن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات و الضروريات الخمس , و هذه في الحقيقة هي حقوق الإنسان الأساسية التي لا تحقق إنسانيته و تحفظ كرامته إلا بتوفيرها و حمايتها كحق الحياة و حرية التدين و حق التفكير و التغيير و حق التملك و التصرف و

غيرها. و يجدر بالذكر هنا الإشارة إلى بعض النصوص الشرعية التي توضح هذه الحقوق و الحريات بدءا بالقرآن الكريم ثم السنة النبوية.

أولا : الحقوق والحريات العامة في القران الكريم: ينطلق القران من اعتقاد راق في نظرته للإنسان ، حيث جعل الله عز وجل الإنسان خليفته في الأرض لعمارتها ، قال تعالى : (و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) . (البقرة 30). وهذا الخليفة الذي نفخ الله فيه من روحه، كرمه عز وجل على سائر المخلوقات و قد ذكر هذا التكريم الإلهي ومشتقات كلمة تكريم في القران الكريم في نحو 20 آية منها قوله عز وجل: (ولقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر و رزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الإسراء 70) ، ثم تحدث القران الكريم عن الخلق ومبدأ المساواة في الخلقة في 150 آية، حيث أسقط كل معايير التفاخر والتمييز العنصري بين الناس، وجعل معيار التفاضل الوحيد هو التقوى، قال تعالى:(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم..) (الحجرات 13). كما جاء الحديث عن العدل والقسط وما يدل عليهما في 54 اية منها قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعضكم لعلكم تذكرون) (النحل 90) . ونهى عن الظلم والمنكر والفحشاء وتوعد الظالمين في حوالي 320 آية ، منها قوله تعالى: (ولا تركنوا للذين ظلموا فتمسكم النار) . (هود 113)

وقد نص الكتاب العزيز على مبدأ الشورى في آيتين أحدهما في صورة تسمى بالشورى، وهي قوله عز وجل : (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى 38).وفي موضوع الجبر والإكراه الذي يدخل في باب الحرية و الاعتقاد وردت أكثر من 100 آية تدور في هذا المعلم منها قوله عز وجل : (لا إكراه في الدين) (البقرة 256) . وقوله عز وجل : (لست عليهم بمسيطر) (الغاشية 22).

ونختم بالحق في الحياة الذي يعد في نظر الإسلام أساس كل الحقوق ، قال تعالى : (من قتل نفس بغير نفس أو فساد في الأرض كأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) (المائدة 33).

ثانيا : الحقوق والحريات العامة في السنة النبوية: لقد جاءت السنة النبوية موضحة لما ورد في القران الكريم ومفسرة له وفي بعض الأحيان مكمّلة له، وفي كل الأحيان مطبقة له، كما أن تكريس الحقوق والحريات كان واضحا في منهج النبي ρ سواء مع المسلمين أو غير المسلمين، و قد ضرب عليه السلام كقائد أروع الأمثلة في الحفاظ على الحقوق والحريات العامة، فقد تكلم عن حق المسلم على أخيه المسلم و عن حق الأولاد، و حقوق الآباء و حق الجار والضيف و المظلوم، وحق الرعية على الحاكم، وحق الحاكم على الرعية، و حقوق أهل الذمة وغيرها..

ولعل من أوضح الأمثلة على الوثائق الحقوقية النبوية ، الصحيفة التي أصدرها النبي ρ بعد هجرته من مكة إلى المدينة المنورة سنة 622م عند إنشاء دولة المسلمين، فقد كان لبنة أساسية في برمجة الحقوق المدنية والاجتماعية في الإسلام ، وقد أرسى دعائم التعايش السلمي بين المكونات الاجتماعية لهذه الدولة الفتية ذات الأعراق و الأديان المختلفة، ومن الأمثلة على تقرير الحقوق والحريات في عهده عليه الصلاة والسلام ما جاء في صلح الحديبية، وعهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران، وخطبة الوداع التي جاءت مؤكدة على كثير من الحقوق الخاصة والعامة.

الفرع الثالث :مسيرة الحقوق والحريات في الحضارة الإسلامية

سوف نقسم هذا الفرع إلى قسمين أساسيين: أولهما الحديث عن الحقوق والحريات في عهد الخلافة الراشدة ، والثاني الكلام عن الحقوق والحريات في عهد الحكم الملكي

أولا : الحقوق والحريات في عهد الخلافة الراشدة: لما تولى الخلافة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كانت أول خطبة له تدل على مراعاته لموضوع الحقوق والحريات، حيث قال رضي الله عنه: " قد وليت عنكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وإذا أسأت فقوموني...الضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع له حقه والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم". ولما ابتعث جيش المسلمين وضح لهم الهدف الأساسي من الفتوح الإسلامية وأوصى أمراءه كتابيا بقواعد راقية في التعامل مع الروح الإنسانية وحماية المدنيين في زمن الحرب والسلم وصيانة حقوقهم.

وهكذا كان ديدن سيدنا عمر رضي الله عنه من بعده ، حيث طور في جهاز القضاء لتحقيق العدالة بين الناس، وكان يتشدد على أمرائه في مسائل الحفاظ على حقوق الناس وحرياتهم، وترك مقولته الشهيرة الخالدة التي عنّف فيها أمير مصر آنذاك: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"

أما في عهد عثمان رضي الله عنه فالمصادر التوثيقية تكاد تكون نادرة، لكن المتتبع لمجريات التاريخ الإسلامي يستشف أن سيدنا عثمان سار على هدي النبي ρ و خليفتيه في هذا الشأن، ولم يأل جهدا في إرساء الحقوق و حمايتها داخل دولته، ولعل استشهاده عليه الرضوان في بيته من طرف معارضيه لدليل على احترام الحريات الفكرية و السياسية بل و التضحية بنفسه حقنا لدماء المسلمين وحفاظا على أرواحهم

أما في خلافة سيدنا علي رضي الله عنه، ورغم كثرة الفتن والمحن في عهده، إلا أن موضوع الحقوق والحريات بقي ضمن أولويات الحكم، وهو ما يستخلص من رسالته رضي الله عنه إلى مالك

النخعي الذي ولّاه على مصر سنة 39هـ ، حيث جاء في هذه الوثيقة تفصيل في كيفية إدارة الإمارة على أربعة قواعد إسلامية أساسية وهي: الحرية ، المساواة ، العدل والشورى .

ثانيا : الحقوق والحريات بعد الخلافة الراشدة: بعد أن انتقل النظام الإسلامي إلى الحكم الملكي تعاقب عليه كل من الأمويين و العباسيين والمماليك والعثمانيين، و يسجل هنا انه من الناحية النظرية ، قلّت الرسائل الرسمية التي تتحدث عن الحقوق والحريات، و اتسعت دائرة التنظير والتفصيل في النصوص الشرعية الحقوقية من طرف العلماء والفقهاء، وتم تناول هذه المواضيع في أبواب متفرقة من الفقه والأخلاق إلى أن انبرى بعض العلماء إلى إفراد مصنفات خاصة بهذا الأمر أو بالسياسة الشرعية على وجه العموم، و من بين هؤلاء: الإمام ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية في إصلاح الراعي و الرعية والإمام ابن القيم في كتابه الطرق الحكمية والإمام الماوردي في مصنفه الأحكام السلطانية .

أما من الناحية التطبيقية فانه يصعب رصد هذا الأمر لطول هذه الحقبة التاريخية - 13 قرنا- . لكن يمكن القول أن موضوع الحقوق و الحريات ظل يترنّح صعودا وهبوطا بين نظام لآخر، بل يتفاوت مراعاة الحقوق وتكريسها بين أمير وآخر في الدولة الواحدة ، وقد سجل التاريخ أسماء اتصفت بالعدل والإنصاف مثل عمر ابن عبد العزيز و هارون الرشيد وغيرهما، كما سجل في المقابل أمراء وولاة كانوا أولي بطش وظلم واستبداد كالحجاج ابن يوسف الثقفي وغيره ، ومما يسجل هنا أيضا الاستخفاف بمبادئ العدل والشورى والحرية والمساواة في أواخر الدولة العثمانية إيذانا بسقوط الخلافة الإسلامية وتقسيمها إلى دويلات، دخل جلها ضمن وصاية واحتلال الدول الغربية .